

الصبر

نقف الآن مع خلق قرآني آخر من أخلاق الرسول ﷺ، لا يمكن أن يؤخذ
بغيره واجب، أو يُجتنب بدونه مُنكر؛ ألا وهو الصبر.

نذكر لك - أولاً - بعض ما ورد في شأنه من آيات - وما أكثر الآيات التي

تحدثت عنه:

من سورة البقرة: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ ﴾ (١)، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَنَشِرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٣) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٤)

ومن سورة آل عمران: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

ومن سورة مريم: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٦) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۗ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٧)

(١) البقرة : ٤٥ .

(٢) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) آل عمران : ٢٠٠ .

(٤) مريم : من الآية ٦٤ ، الآية ٦٥ .

ومن سورة الفرقان في ختام الحديث عن عباد الرحمن: ﴿أُولَئِكَ

مُجْرَبُونَ الْغُرُفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلِيدِينَ
فِيهَا حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴿^(١)

ومن سورة الزُّمَر: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ

أُحْسِنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ
أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦١﴾ ﴿^(٢)

ومن سورة الشُّورَى: ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمُ

مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴿^(٣)

ومن سورة الأحقاف: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا

تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ
بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿^(٤)

(١) الفرقان : ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) الزمر : ١٠ .

(٣) الشورى : ٤١ - ٤٣ .

(٤) الأحقاف : ٣٥ .

عند التأمل في الآيات التي تحدثت عن الصبر نجد أنفسنا أمام حقيقة واضحة، وهي أن الصبر يعين الإنسان على النهوض بالتكليف من مأمورٍ به أو منهي عنه. من أجل ذلك قال العلماء: إن الصبرَ المحمود: منه صبر على طاعة الله ﷻ، ومنه صبر عن معاصي الله ﷻ، ومنه صبر على أقدار الله ﷻ.

وقالوا: إن الصبر على الطاعات وعن الحرمان أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة.. وأفضل أنواع الصبر: الصيام؛ فإنه يجمع الصبر على الأنواع الثلاثة، لأنه صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله؛ لأن العبد يترك شهواته لله، ونفسه قد تُنازعه إليها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله ﷻ يقول: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» (١)

وفيه أيضاً صبر على الأقدار المؤلمة بما قد يحصل للصائم من الجوع والعطش، وكان النبي ﷺ يسمي شهر الصيام شهر الصبر.

وقد قيل: إن معنى الصبر في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٢)

الصوم. قال ابن جرير: وتأويل من تأول ذلك عندنا: أن الله - تعالى ذِكْرُهُ - أمرهم بالصبر على كل ما كرهته نفوسهم من طاعة الله وترك معاصيه. وأصل الصبر: مَنَعُ النَّفْسِ مَحَابَّهَا، وكفها عن هواها، ولذلك قيل للصابر على المصيبة صابر، لكفّه نفسه عن الجزع. وقيل لشهر رمضان: شهر الصبر؛ لصبر صائميهِ عن المطاعم والمشارب هاراً، وصبره إياهم عن ذلك: حبسه لهم وكفه إياهم عنه.

إن الإنسان مكلفٌ مسئول، لا يمكن أن يؤدي الأمانة والعهد الذي أخذ عليه إلا بضبط النفس وإيقافها عند معالم وحدود حددها الشرع وبينها الرسل - صلوات

(١) رواه البخاري.

(٢) البقرة: من الآية ٤٥.

الله عليهم - ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً إذا كان أسير شهوته وهواه « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (١)

والحكم دائماً على المستوى الحضاري لأي أمة إنما هو بمقدار ما فيها من ضوابط خلقية تُصان بها الحرمات وتُؤدَّى الواجبات وتُراعى الحقوق.

وما تعانیه الإنسانية - في أي عصر - في مشاكلها الخاصة والعامّة لا ينشأ إلا من التفلت من الضوابط الخلقية والتكاليف التي تميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات. فلا ترى ظالماً إلا وقد تفلت من ضبط النفس إزاء ما تشتهي وتهوى من حُبِّ التكاثر والغلبة؛ ولا ترى مُعتدياً على محارم إلا وقد تفلت من العفة والمروءة التي تُحوّل بينه وبين الاعتداء على محارم الناس.

ولا ترى أمة يكون شعارها العدوان إلا وقد تفلتت من حكم الحق والعدل إلى سلطان الهوى، ولا بُدَّ أن تساق حتماً إلى الضلال العذاب الشديد.

إن جميع الصفات الخلقية - كما ترى - تحتاج إلى الصبر الذي يحبس النفس ويكفها عن هواها. وبالصبر تستقيم جميع الصفات الخلقية من إيجابية وسلبية، وبدونه لا يمكن أن تُؤدَّى واجبات أو تُصان حقوق. وقد تحمل الأعمال الجادة اسماً غير اسم الصبر. ولكنها منه.

قال الراغب: ((الصبر لفظ عام، وربما حُوِّلَف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبسُ النفس لمصيبة سُمي صبراً لا غير، وبيضاؤه الجزع. وإن كان في محاربة سُمي شجاعةً، وبيضاؤه الجبن.

(١) الإبانة الكبرى.

وإن كان في نائيه مُضَجِرَةٌ سُمِّيَ رَحْبَ الصُّدْرِ، وِيضَادَهُ الصُّجْرُ.

وإن كان في إمساك الكلام سُمِّيَ كِتْمَانًا. أ.هـ»^(١)

فأنت ترى أن الإنسان - في جميع شئونه وأحواله - لا يمكن أن ينهض له عمل أو يتحقق له قصد إلا بالصبر.

إن الصبر عطاء من الله يُشَدُّ بطاعة.. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه « أَنْ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ »^(٢)

وبعد أن تعرفنا على هذا الخلق القرآني من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الصبر، وقد عرفنا، حقيقته وأدركنا مواضعه، وتدبرنا بعض الآيات ورأينا بياها من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن الصبر يحتاج إلى مجاهدة النفس والاستعانة بالله وحسن التوجه إليه؛ حتى تقوى النفس على مُجَاهَدَةِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الْمُتَبَايِنَةِ، وتظفر بالخير في جميع الأحوال. إن الذنوب هي مواطن الضعف في الإنسان، ومنها تدخل الهزيمة ويمضي الرهن إلى القلوب. وعلى قَدْرِ الْبُعْدِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ يَكُونُ الْفَرْعُ وَالْجِبْنَ عِنْدَ الْلِقَاءِ ﴿ سَنَلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ

(١) المفردات للراغب.

(٢) متفق عليه.

بِهِ سُلْطَنًا ﴿^(١)﴾ .

وعلى قدر الصلّة بالله وصدق الإخلاص له تكون البسالة والصبر في البأساء والضراء ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٣٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾^(٢) .

إن الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي يحتاج إلى مجاهدة النفس، ومجانبة الهوى، للوصول إلى مرضات الله ﷻ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾^(٣) ، ﴿ وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ ﴾^(٤) .

وعندما نتدبر الحديث عن عباد الرحمن في سورة الفرقان نرى أن ما وصفهم الله به - من فعل الطاعات وتجنب المعاصي - قد جزاهم عليه بما تحملوا من الصبر في الوصول إلى مرضاته.

(١) آل عمران : من الآية ١٥١ .

(٢) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) مريم : من الآية ٦٤ ، الآية ٦٥ .

(٤) طه : ١٣٢ .

على أي شيء صبروا؟ صبروا على الخلق التواضع ولين الجانب وإن خاطبهم السفهاء ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١)

صبروا على الإنابة إلى الله وطاعة أمره ﴿يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ (٢)

ومع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الخالق، يخافون عذاب الله، ويتهلون إلى الله أن يصرفه عنهم، ولا يتكلمون على أعمالهم ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٣)

صبروا على إنفاق المال في اعتدال دون شح أو إسراف ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٤)

ومع فعلهم الطاعات تقرباً إلى الله يجتنبون المعاصي؛ ابتغاء مرضات الله، فهم ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (٥)

(١) الفرقان : من الآية ٦٣ .
 (٢) الفرقان : من الآية ٦٤ .
 (٣) الفرقان : من الآية ٦٥ .
 (٤) الفرقان : من الآية ٦٧ .
 (٥) الفرقان : من الآية ٦٨ .

﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ^(١) وإذا ذُكِّروا بآيات ربهم سمعوا واستجابوا، ولم يخروا عليها صمًا وعميانًا، وهم ينشدون صلاح الناس من حولهم، وأن يكون أقرب الناس إليهم من أزواجهم وذرياتهم قُرَّةُ أعين في طاعة الله وابتغاء مرضاته.

ولا شيء أطيبُ لنفس المؤمن من بيئةٍ صالحة تُعينه على ما يحبُّ من طاعة الله والتقرب إليه، وبخاصة ما يكون من أهل وعشيرة، ولا شيء أَلَمُ لنفس المؤمن الصادق من بيئةٍ فاسدة، وبخاصة ما يكون من أهل وعشيرة، ولذلك كان من دعائهم: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ^(٢)

ما جزاء هؤلاء الذين رأيتهم على الطاعة صابرين، وعن المعصية صابرين؟

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ ^(٣) خَلِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٢﴾
 ﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ^(٤)
 ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٥)

(١) الفرقان : من الآية ٧٢.

(٢) الفرقان : من الآية ٧٤

(٣) الفرقان : ٧٥ ، ٧٦.

(٤) الزمر : ١٠.

(٥) يوسف : من الآية ٩٠.

قد رأينا كيف قابل يوسف عليه السلام كيد إخوته، وواجه كيد امرأة العزيز فألقى على يد إخوته في جُبٍّ، وألقى على يد امرأة العزيز في سِجْنٍ.

وكان في كيد إخوته صابراً على البلاء، وفي كيد امرأة العزيز صابراً مستمسكاً

بعفته بين التهديد والإغراء ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ^(١)

ومن السجن إلى البراءة الصادقة، إلى تدبير شئون الملك أميناً على خزائن

الأرض ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ^(٢)، إلى مجيء إخوته الذين كادوا

له، وإحسانه لهم، وحيلته معهم بمشيئة الله، إلى والده الذي لم ييأس قط من رحمة الله

وهو يواجه مصابه في يوسف وأخيه، معتصماً بالصبر في أول الأمر وآخره ﴿فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٣)

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ^(٤) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ^(٥)

عندئذ تتم المكاشفة ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ

جَاهِلُونَ﴾ ^(٦) قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

(١) يوسف : من الآية ٣٣.

(٢) يوسف : من الآية ٥٥.

(٣) يوسف : من الآية ٨٣.

(٤) يوسف : ٨٧، ٨٨.

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾^(١)

إن سرَّ النجاة يكمن في التقوى والصبر، إن سرَّ النصر على الكيد - في شئٍ صوره - تحدده هذه الكلمات ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٢)، ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً

إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾^(٣)

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنَّ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا »^(٤)

إننا مضينا مع الصبر المحمود، ومنه صبرٌ على طاعة الله وقد عرفناه، وصبرٌ عن معصية الله وقد ذكرناه.

أما الصبر على الأقدار، والصبر على إساءة المسئ وأنت تحسن إليه. فإننا نود أن نتدبر ما فيه من قول الحكيم الخبير، وبرى هَدْيِي الصَادِقِ الأَمِينِ ﷺ فِي حَدِيثِ مُسْلِمِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ لَكَ آنفًا - وَقَدْ جَاءَ فِيهِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ « وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ » والتعبير النبوي دالٌّ كل الدلالة على حقيقة الصبر وأنه نور لكن فيه حرارة وإحراقاً

(١) يوسف : ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يوسف : من الآية ٩٠ .

(٣) آل عمران : ١٢٠ .

(٤) رواد مسلم .

وإنه نور لكن فيه حرارة وإحراقاً .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ^(١)، والصبر ضياء

كضياء الشمس. لا كنور القمر فيه إشراق بغير إحراق كما قيل.

ولما كان الصبر شاقاً على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس ومجانبة الهوى كان ضياءً، وكان ما في الضياء من حرارة وإحراق هو جانبُ المجاهدة والمكابدة، وجانبُ النور هو ما فيه من حسن العاقبة والجزاء والشعور بمرضات الله ﴿ وَنَشِّرْ

الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٢)، ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ^(٣)

إن الحياة الدنيا دارُ ابتلاء واختبار، ومن أرادها لغير ذلك فقد مضى وراء

سراب خادع ﴿ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ^(٤)

والله - جلَّ وَعَلَا - يقول: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ ^(٥)، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ^(٦) .

(١) بونس : من الآية ٥ .

(٢) البقرة : من الآية ١٥٥ .

(٣) الزمر : من الآية ١٠ .

(٤) النور : من الآية ٣٩ .

(٥) الملك : ١ ، ٢ .

(٦) محمد : ٣١ .

كان خلقه القرآن

وكما يُختبر العبد بالطاعات ويختبر بالمنهيات، كذلك يُبتلى الناس بالفقر، والفقير، والصحة والمرض، والموت والحياة، كما يتلى بعضهم ببعض.

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ ﴾ (١)

وهذا ابتلاء يقع بين المصلحين والمفسدين، بين المتقين والفجار. والمتوقع دائماً من أهل التقى والصلاح هو الصبر. والعاقبة لهم دائماً، وهو ما به ختام الآية

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ ﴾، ﴿ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝ ﴾ (٢)

تعال بنا نرى صبر المؤمن على الأقدار وما أعد له من جزاء وأجر.. عن أبي

سعيد الخدري، وعن أبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِهَهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (٣)

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ يُرِدْ

اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » (٤)

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا. قَالَ: أَجَلٌ، إِنِّي

(١) الفرقان : من الآية ٢٠.

(٢) آل عمران : ١٢٠.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

أَوْعَكَ^(١) كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ. قُلْتُ: ذَلِكَ أَنْ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلٌ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى - مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ - إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَّهَا^(٢)»

هذا رسول الله ﷺ في مرضه يوعك كما يوعك رجلان.. وقد سمعت من لسان الصادق الأمين ﷺ ما يفيد حصول الأجر على الأمراض والأعراض، وذلك لا يكون إلا بالصبر وعدم التبرم من القدر والسخط عليه.

قال ﷺ: « إِنْ عَظِمَ الْجَزَاءُ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ »^(٣)

وهناك جانب من الصبر يكون على أذى أهل البغي والفساد، وما أكثر ما يسئ أهل الباطل ويتناول السفاء.

والرسل والأنبياء - ومن سار على نهجهم - مطالبون بالصبر في جميع الأحوال، حتى في مواجهة أهل الباطل في ميدان الجهاد. وقبل المنازلة المشروعة التي تتوافر أسبابها وتكتمل دواعيها قد يجد جند الحق من أهل الباطل سفاهة وتجاوزاً..

فماذا يفعل أهل الحق؟ إنهم مطالبون بالصبر وهم يستمسكون بالحق معرضين عن سفاهة أهل الباطل..

وكثيراً ما أغرى هذا الخلق الرفيع أهل الباطل فمالوا إلى الحق ونصروه. ولن يكون ذلك إلا بإحسان أهل الحق وصبرهم وثباتهم وإخلاصهم لله ووقوفهم عند حدود ربهم..

(١) الوعك: حرارة الحمى وألمها.

(٢) رواد مسلم.

(٣) رواد الترمذي.

وهذا الجانب من الصبر هو من عزم الأمور كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١)، وهو خُلق دعا الله نبيه إليه ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) إنه صبر أمام سفاهة السفهاء وإساءة من تحسن إليهم.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: « قَدِمَ عِيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيْفَةَ، فَتَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ التَّفَرِّ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا. فَقَالَ عِيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ. قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعِيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ »^(٤)

إن الله - جلَّت قدرته - قد جعل الدنيا دارَ ابتلاء وامتحان، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ

(١) الشورى : ٤٣ .

(٢) الأحقاف : من الآية ٣٥ .

(٣) الأعراف : ١٩٩ .

(٤) رواه البخاري .

الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^ط وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١﴾

إن في الحياة خيراً وشرّاً، فيها المؤمن وفيها المفسد، فيها المتقي وفيها الفاجر. وقد شرع الله الجهاد في سبيله فضلاً منه ورحمة - لدفع الظلم وردع الفساد.

﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١)

﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ

وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ^٤ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن

يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ^(٢)

ومن فضل الله على المؤمنين أنهم دائماً يسطون يد السلم بسلوهم واستقامتهم، واحترامهم لحقوق الناس حيث كانوا، ولكن أولياء الشيطان - بما انطوت عليه نفوسهم من حسد وبغضاء - يأبون إلا الفتنة والتسلط والبغي وإيقاد نار الحرب والسعي في الأرض بالفساد. ولولا فضل الله ما انطفأت لهم حرب ولا توقف منهم كيد. ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ^٤ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ

فَسَادًا ^٥ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٣)

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) البقرة : من الآية ٢٥١ .

(٣) الحج : ٤٠ .

(٤) المائدة : من الآية ٦٤ .

ونحن المسلمين يسجل تاريخنا ماضيه وحاضره أن أولياء الشيطان دائماً يقصدون جمعنا، وينشدون أرضنا، ويسعون إلى فرقنا ﴿ وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾^(١)

لم تنقطع مؤامراتهم أبداً على ديارنا، وكم من حملة باغية على أرض الإسلام قد ردتها بعون الله سيوفُ المجاهدين في سبيله، وكم من مؤامرة بيتت ليل، التقى فيها أولياء الشيطان على الكيد لأمة التوحيد، ففضح الله مكرهم ورد كيدهم.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾^(٢)

و في تاريخنا المعاصر صراعٌ على أرضنا تعرفه الدنيا وتعرف أسبابه ودوافعه، صراع بين عدو غاصب مستبد، ألقت به مؤامرات على أرضنا، وبين أصحاب الحق الذين شهدوا بأعينهم أعجب مؤامرة عرفها التاريخ.

لقد صحا ابنُ الدار فرأى نفسه طريداً عن أرضه، بعيداً عن داره، قد اغتصبت مقدراته، ودنست مقدساته.

فهاهنا ما رأى ودار الصِّراع بين مدٍّ وجزر، ووقعت معارك كان العدو فيها دائماً ثملاً بطراً من نشوة النصر الذي يُصنع له، وكان صوتُ الإيمان دائماً ينادي هذه

(١) آل عمران : من الآية ١١٨.

(٢) محمد : ١-٣.

الامة أن تلتقي على عقيدتها وأن تتوحد على دينها وأن تأتلف على مرضات ربا حتى تجد نصره وعونه.

إن أصحاب المؤامرة يعلمون أنهم لا يستطيعون اغتصاب شبر واحد إلا في غيبة الإيمان. ولا يستطيعون أن يحطموا جداراً واحداً قبل تحطيم القيم والأخلاق.

ووضحت الحقيقة أمام أبناء الأمة الإسلامية. فارتفعت الأصوات الداعية إلى اللقاء على العقيدة التي لا تنتصر إلا بها، وعلى المبادئ التي لا نعرف لأنفسنا عزاً ومجداً إلا بنصرتها. وجاء يوم العاشر من رمضان لتسمع الدنيا أصوات التكبير وهي تعلو على أصوات المدافع.

وسمع العدو الصوت الذي جاء يتأمر عليه قوياً لم يخفت، ورأى جنوداً هم أبناء الرجال الذين عرفهم آباؤه من قبل.

نعم جاء يوم العاشر من رمضان تعبيراً صادقاً عن إرادة هذه الأمة في أن يكون لقاءها باسم الله وحده، وأن يكون قتلها في سبيل الله وحده، فلم ترد أي شعار إلا شعار الإيمان، ولم تنطق إلا باسم الله الذي ترحو نصره وتطلب تأييده وتقرأ في كتابه ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۗ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)



إن لنا في يوم العاشر من رمضان عبراً وعظات:

أولاً: لنا فيه ألفة قد رأينا آثارها، وهي نعمة من الله وحده ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

(١) آل عمران : ١٦٠.

(٢) الأنفال : من الآية ٦٣.

ثانياً: لقد ظل العدو يتخذ من الفرقة سلاحاً يدمر به وينال نصراً رخيصاً يُصنع له. وجاء العاشر من رمضان ليبرهن للناس أن الأمة التي تلتقي على التوحيد يمكن أن تتوحد في أي لحظة.

فواجب أن نعتصم دائماً بحبل الله ولا نتفرق ﴿ وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾^(١)، وأن نكون جميعاً أبناء بيت واحد تختلف فيه وجهات النظر ولا تختلف الغايات والمقاصد، وإذا اعتصم الجميع بحبل الله خضعت النفوس للغاية والتقت عليها ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢)

ثالثاً: إن العدو متربص يفتنم كل فرصة لتحقيق مآربه وتنفيذ مخطمعه، وهو يود أن نغفل عن سلاحنا أو نشغل بأنفسنا عنه فيميل ميلته ويحقق غايته ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾^(٣)

ومع إحراز السلاح المادي والمحافظة عليه. كذلك لا بُدَّ من المحافظة على كافة أسلحتنا من الألفة، والترابط، والتعاون، والتناصح، واللقاء على طاعة الله ورسوله، والعمل الدائب على تربية الفرد تربية إسلامية صادقة في كافة الديار الإسلامية حتى لا ينفذ العدو بهواه إلى الصفوف، ويستولي بأساليبه على النفوس

(١) الأنفال : من الآية ٤٦ .

(٢) التغابن : من الآية ١١ .

(٣) النساء : من الآية ١٠٢ .

فَتَفَقَّدَ الْعَوْنَ وَالنَّصِيرَ ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) .

رابعاً: إن يوم العاشر من رمضان وما رأينا فيه من طلائع النعمة، نعمة الألفة والترابط، يحتم علينا أن نعود في أي بقعة من بقاع الأمة الإسلامية إلى كتاب الله وسنة نبيه لنغرس في نفوس أبنائنا خلق القرآن من الإخلاص، والصدق، والثبات، والاستقامة، والظهور « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » (٢)

وأمتنا الإسلامية - بحمد الله - يحدوها الأمل في مستقبل مشرق، (ولله في أيام دهرنا نفحات)، ورمضان هو شهر النفحات والبركات واستجابة لدعوات.

نرجو الله أن يحقق لأمتنا خير ما ترجوه من نصر وما تنشده من عز، وأن يجعلها أهلاً لنصره وتأييده إنه نعم المولى، ونعم النصير.. آمين.



(١) البقرة : من الآية ١٢٠

(٢) رواه مالك في الموطأ.